بفضلها وبفضل سياستها فى توجيه الأمور انتصرت مصر على الصليبيين فى موقعة حطين ، وتتوج هذا النصر بأسر لويس التاسع ، ولما مات زوجها الملك الصالح نجم الدين أثناء الحرب ، وتولى ابنه طورانشاه ، وقفت خلفه تشد من أزره ، وأشرفت على ترتيب خططه ، وتهيئة سياسته ، فكانت بمثابة الرأس المدبر لشئون البلاط والجيش فى هذا الظرف العصيب .

فلما مات الملك طورانشاه ، لم ير زعماء الدولة وقادتها خيرا من تولية المرأة التى قادتهم للنصر فى أحرج المآزق عرش مصر ، فتولت عرش مصر للمرة الأولى والأخيرة فى شهر صفر عام ٦٤٨ هـ . وتلقبت الملكة الجديدة بألقاب متعددة مثل : « والدة الخليل » و« المستعصمية الصالحية » و« ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين » وغيرها . وأقيم للسلطنة نائب قوى هو الأمير عز الدين أيبك كبير المماليك البحرية ليعاونها فى تدبير الحكم .

وبالرغم مما أبدته شجرة الدر من حزم وبراعة فى تسيير الشئون ، وتصفية الموقف مع الصليبيين وإجلائهم عن مصر ، فقد كان جلوس امرأة على عرش مصر نذيرا بوقوع الفتنة واضطرام الخلاف فى أنحاء المملكة ، ولا سيما فى الشام ، حيث أبى معظم الأمراء أن يحلفوا يمين الطاعة للملكة الجديدة ، فعندئذ رأت الملكة شجرة الدر أن تتزوج من الأمير عز الدين أيبك ، ولما لم تفلح هذه الخطوة فى تهدئة الأمور رأت أن تتخذ الخطوة الحاسمة ، وأن تفتدى سلام المملكة بذلك العرش الذى رفعها القدر إليه ، فتنازلت عنه لزوجها بعد أن اعتلته ثمانين يوما فقط ، وكان الملك المعز هو أول حكم المماليك البحرية فى مصر .

وجدير بنا أن نقارن بين الملكة شجرة الدر التى خلدت ذكراها